القصة حول العالم

بقلم : على شلش

الجنة الخضراء والقصة القصيرة

للكاتب القصصى الأمريكى جون شتاينبك قصة قصيرة ذكية بعنوان « الجنة الخضراء » ، عالج فيها مشكلة الامريكى الذى ينحدر من أصول ايرلندية ، ويجد نفسه مرغما ـ ان عاجلا أو آجلا ـ على أداء فريضة الحج الى مسقط رأس أجداده . ومنها هذه العبارة التى جاءت على لسان راويها :

أحسب أننا كنا نرى فى ايرلندا ـ أرض الأبطال ـ جنة خضراء ، حيث كان الناس الذهبيون ينبعثون من الخضرة تحف بهم الازهار والورود من كل اتجاه » .

وأحسب أن بطل القصة ـ وراويها فى الوقت نفسه ـ لم يخطىء التصور ، فقد أنجبت هذه الجنة الخضراء عددا من ابطال التاريخ ، كما أنجبت عددا من ابطال الادب ، ومنهم شتاينبك نفسه الذى تجرى فى دمه دماء أمه الايرلندية الأصل ، فهو اذن ايرلندى (منتسب) ان صح التعبير ، تمييزا له عن (المنتظمين) أمثال وليم بتلرييتش وجون سينج وبرنارد شو وشون أوكيزى وجيمس جويس وصامويل بيكيت وسواهم من الذين انتظموا فى الدماء الايرلندية بحكم المولد والأب ، لكن الغريب أن كثيرين من هؤلاء المنتظمين هجروا جنتهم الى انجلترا أو أوربا او امريكا حيث عاشوا الى نهاية حياتهم ، وخاصة جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) الذى غادرها بلا عودة فى سن الثلاثين وكذلك سكرتيره السابق صامويل بيكيت أحد أبطال فكرة العبث فى المسرح المعاصر .

أقول ذلك تقديما للحديث عن الكاتب القصصى الايرلندى شون أوفولين الذى يكاد أن يكون مجهولا تماما فى العربية ، رغم انه يعد أشهر أديب ايرلندى على قيد الحياة ، أو هو «الأديب الاول فى ايرلندا اليوم» كما اعتاد أن يصفه ناشرو مؤلفاته ، وأوفولين كاتب خصب متعدد الجوانب ، اشتغل بكتابة القصة والنقد والصحافة والسير والتاريخ منذ أكثر من ثلاثين عاما . وقد ولد عام ١٩٠٠ ، وكانت باكورة انتاجه مجموعة من قصار القصص بعنوان «**جنون ليلة من ليالى**

منتصف الصيف» ، أصدرها فى عامه الثانى والثلاثين ابان عمله بالتدريس ، لكنه لم يسلم من «التفاحة» ، فكان أن خرج من «الجنة الخضراء» وغاب عنها ست سنوات قضـــاها مناصـــفة بين انجلترا وامريكا ، ثم عاد عام ١٩٣٣ فوهب نفسه للقضية الوطنية معضدا بطلها ديفاليرا ، لكن ذلك لم يصرفه عن كتابة القصـــة والرواية التى استهوته ، فقد شجعه على المضى فى هذه الطريق ما تجسد فيه من ذكاء الايرلندى التقليدى ورهافة حسه وطيبة طويته ، فنشر فى الفترة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٠ ثلاث روايات لم تنل حظا كبيرا من الشهرة للأسف • ومع ذلك لم تصبه خيبة الأمل ، فقد ظل يكتب ويعانى ، حتى تولى عام ١٩٤٠ رئاسة تحرير مجلة « الناقوس » ، وهى مجلة شهرية حرة داومت على الصدور قرابة ست سنوات ، وكانت تشجع الأدباء الناشئين وتجازيهم ماديا • وكان هو رئيس التحرير الوحيد فى بلاده الذى فتح صدره للناشئة وانتاجهم ، حتى قيل ان جهوده انقذت الأدب الايرلندى وجنبته الهاوية • بل انه كان يبثهم شعاره الذى اتخذه دستورا لنفسه ، ولخصه فى كلمات هى : « **انظر الى الحقائق وافهم الصورة** » كذلك أعجب بقول مأثور للشاعر الفرنسى بودلير نصه أن « **كل من لا يقبل ظروف الحياة ويســـلم بها فانه يبيع روحه** » ، وشدد على كلمة « كل » بحيث تعنى كل انسان ، وكل أمة ، وكل كاتب •

والحق أن أوفولين كان ــ وما يزال ــ من طراز الرومانسيين الثوريين الجادين ان صح أن يوجد مثل هذا الطراز ، فقد مزج الواقع بالطموح والشجن والمعاناة • فكان أن ناصر المرأة ــ مثلا ــ فى وقت عاداها فيه الكثيرون ، نتيجة التزمن السائد وضيق الأفق • ثم تحول الى التاريخ والسير فأخرج عددا من المؤلفات أهمها كتابه « أونيل العظيم » الذى ترجم فيه لحياة المسرحى الامريكى المعروف المنتسب للجنة الخضراء بحكم الدم ، وكذلك ترجمته لحيـاة ديفاليرا • كما نشر مؤخرا المجمـوعة الكاملة لقصصه القصيرة ، وضمنها ٧٢ قصة تعد سجلا لحياته وحياة بلده ، وهى تتميز بالواقعية التى تتخللها نبضات من العاطفة والخيال •

ولأوفولين آراء قيمة فى فن القصة القصيرة هى حصـــيلة تجربته وثقافته القصصية وحسه النقدى الدقيق • وأعرض هنا لما كتبه فى هذا المجال تحت عنوان « **فن القصة القصيرة** » ، نظرا لما تتضمنه هذه الدراسة الذكية العميقة من نقاط وملحوظات جديرة بعنايتنا فى هذه الآونة التى يشـــتد فيها الطلب على الأصالة والموهبة .

وهو يستهل دراسته هذه بقوله ان أكثر ما يعرض القصة القصيرة لســـوء الفهم هو اسمها ذاته ، نظرا لما توحيه كلمة « قصة » لجمهرة القراء والكتـــاب بما لا يخرج عن معنى كلمة « حكاية » ، أى النادرة أو اللطيفة البارعة ذات البداية المشوقة والوسط الدرامى والنهاية غير المتوقعة التى تعتمد على عنصر المفاجأة ، وفى رأيه أن هذا الضرب من الحكايات الذى نسمعه فى المخادع والاندية هو النسخة العصرية للحكاية الشعبية القديمـة التى كانت تروى بالقرب من النيران بقصـد التسلية مع التدفئة ، لكنه يضيف انهـا لاتنشىء قصصا قصـيرة بالمعنى العصرى

للكلمة ، كما يندر أن تتحول الى هذا اللون الفنى ، لقيامها على الاحداث الكثيرة ، واقتصارها على السمع دون القراءة .

أما القصة المكتوبة فهى تهذيب وتكرير ، أو بالاحرى سلسلة كاملة من **التهذيب لهذا النوع من التسلية والمتعة ، والعقدة هى احدى صور هذا التهذيب والتكرير .. ذلك لان اقدم الأسمار لم تكن بها عقدة قط : اذ هى لاتعدو أن تتقدم من حادثة الى أخرى فى تسلسل مغامرات لايحد عددها سوى مقدرة الراوى على الاختراع والابتكار أو صبر المستمعين أو انشغالهم بها .. ونوجز فنقول ان العقدة عبارة عن حيلة واحدة ضمن كثير من الحيل ، وليست غاية فى ذاتها .**

وينتقل أفولين الى الفرق بين الحادثة والقصة ،فيضرب مثلابحادثة ملخصهاان سيدة فى مقتبل العمر كانت تستقل احدى عربات الاجرة فى لندن ، عندما اصطدمت بالاخيرة عربة نقل أحدثت بنافذتها ثقبا على هيئة نجمة ، وطارت شظية مسنونة من زجاج النافذة المتهشم واندفعت كالخنجر الى قلب السيدة فأردتها قتيلة فى الحال . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله : « ان الموت لم يكن بلغة الفن موتا مأساويا ، فقد كان مأساة خارجة عن الارادة فى ساعة نحس ، ولم تكن له دلالة ، ولا معنى ، ولاقصد آخر أكثر من الحقيقة المحزنة التى تشير الى أن كثيرا من حوادث النحس العادية تحدث فى الحياة وتتواتر » . ويمضى بعد ذلك فيناقش علاقة القصة كعمل فنى بالحادثة الواقعية المشابهة فيقول : « ومن هنا فان ما أعنيه هوان جوهر القصة ولبها ليس هو مايحدث ، وانما هو اماطة اللثام عن الدلالة الضخمة لما يحدث ، وهذه الدلالة هى ماينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار عند تقويم قصة قصيرة».

لكن ما معنى كلمة دلالة ؟ وكيف تدخل هذه الدلالة فى قصة قصيرة ؟ واين يجدها الكاتب ؟ وكيف يعرف ما اذا كان وجدها أم لا ؟ .. انه يعترف بداءة ان مثل هذه الاسئلة لا يمكن الاجابة عليها . « ذلك لأنها من الأمور التى لايمكن أن تلقن لأحد ، كما لا يمكن ان يدرسها أحد . وهذا هو السبب فى ان كافة المناهج التى توضع تحت عنوان « كيف تكتب قصصا قصيرة » انما هى فى المدى البعيد شرك وغش ... فالحق أنه لا القصة القصيرة ولا القصيدة يمكن أن تتراجم ترجمة دقيقة الى كلمات اخرى عدا كلماتها هى الخاصة بها وحدها . فشخصية الكاتب هى التى تقوم بتوحيد التكنيك (فن المعالجة والأداء) والمحتوى فى ذات واحد مفردة » وما مهمة التكنيك ؟ .. يقول : **« ان كل مهمة التكنيك هى أن ينومنا مغناطيسيا حتى نسلم بأن ما يصفه الكاتب يحدث لنا بالفعل ، كما لو كان عوضا عن هذا الذى يحدث أو وكيلا له . وذلك كى نحس بذات الطريقة التى يحس بها الكاتب . ومن ثمة فان القصة فى الواقع لا تدور حول شىء على الاطلاق ـ بقدر ما تدور حول نظرة الكاتب للحياة ، وطريقته الذاتية فى النظر الى الأمور ... فقصة «الحلبة» لموباسان تدور حول امراة فقدت قلادة كانت قد استعارتها . لكنها عن موباسان نفسه . فهى عن عبارة عن أسلوبه فى أن يقول : « هكذا الحياة ؟ » ـ أى «هكذا أرى الحياة » ...**